٨ آذار
عيد المرأة العالمي

اعادة اعتبار لدور المرأة في بناء المجتمع

الثامن من آذار . . عيد المرأة العالمي . . يوم عظيم في حياة المرأة ، فهو تعبير عن التقدير الكبير لكل الانجازات التي حققتها المرأة في مسار تحررها ، انه اعادة اعتبار لنصف المجتمع واعتراف علني بأهمية هذا العنصر الفعال والهام في بناء المجتمعات . ولم تكن المرأة لتستطيع تحقيق مثل هذا الاعتراف وهذا التقدير لولا النضالات الطويلة والشاقة التي اضطلعت بها واثبتت جدارتها في ان تكون نداً للرجل الذي ساد وحكم المجتمعات آلاف السنين ، وأبعدت قسراً عن القيام بدورها ، بسبب من التسلط المبني على القهر الطبقي والاجتماعي ، انها تعود الآن وبكل ثقة لتسترد مكانتها الضائعة ، مستفيدة من انجازات التأريخ الحضارية .

لم تكن الفصول التأريخية الأولى لبدء اضطهاد المرأة بمستعصية على التفسير والفهم ، فالخطوات الرئيسية لقصة هذا الاضطهاد بدأت مع انحلال المشاعية البدائية ، حيث كانت المرأة السيد الحاكم في المجتمع ، ومع أول تقسيم اجتماعي للعمل وظهور المجتمع الطبقي ـ بدأت مكانة المرأة بالاهتزاز وبدأت معها نسج خيوط المأساة ، المتمثلة في عملية استغلال الانسان للانسان واستلاب المرأة واضطهادها ، وذلك بإقصائها عن عملية الانتاج المادي والتي اصبحت حكراً على الرجل ، ومع ظهور العبودية قامت الاسس الايديولوجية ـ الفكرية والاجتماعية والحقوقية والفلسفية ـ التي تجسدوتكرس واقع القهر الاجتماعي الجديد ـ عبودية المرأة للرجل ، وتجريدها من كافة حقوقها الانسانية تقريباً ، كحقها في تقرير مصيرها الشخصي بنفسها ، إذ أعطي هذا الحق للرجل في التصرف بكل ما يمس شؤون حياتها حسب ارادته ومزاجه ـ فهي ملكية خاصة له كأي متاع او اداة ، واصبحت المهمة الرئيسة لها محددة داخل جدران المنزل : الانجاب ، تربية الأولاد ، القيام على خدمة الرجل وراحته ، وبالمقابل اصبحت مصدراً لجلب العار على الرجل ان هي اخلت أو حاولت الاخلال بموازين العادات والتقاليد ، وللرجل الحق بممارسة حكم الموت عليها ، وطريقة الوأد للطفلة هي من احدى الأشكال الفظيعة بحق حياة الانسان والتي كانت عرفاً سائداً في مجتمعنا القديم والسبب في ذلك هو أن التخلص مما يمكن أن تجره البنت من عار على الرجل ان هي كبرت ، وسبب آخر ألا وهو التخلص من أعباء عنصر غير منتج ، فمجرد مجيئها الى العالم كان شيئاً مقيت وغير مستحب .

هكذا كان الحال ولسنوات مديدة من حكم مجتمعي العبودية والاقطاع ، حيث وضع مفكرو هذه المجتمعات كل المبررات الفكرية والاجتماعية اللازمة لهذا العزل ، الفصل ، فهي التي أغوت آدم واخرجته من جنة عدن ، صاحبة الخطيئة الأصلية التي اغضبت الله وجعلته يحنق على الجنس البشري ، الشيطان الشرير ، الماركة التي لا يؤمن جانبها ، وهي مصدراً للنجاسة ووراء أي رجس لا بل وراء كل الكوارث الطبيعية والاجتماعية التي اصابت البشرية ، وعلى النقيض من هذا فهي «الضلع القاصر» و «العقل الناقص» و «الشرف» الخ الخ .

لقد نسجت الكثير من القصص والخرافات والأساطير حول شرورها ونقصها ، وهناك العديد من السير عن التأريخ المليئة بالمصاعب والمعاناة والاذلال .

ان المجتمع الطبقي خلق الى جانب العبيدوالفلاحين المستغلين مشكلة انسانية أحدّ وأعمق وأكثر ايلاماً وفظاعة من الاستغلال المادي للعمل وذلك بحكمه على المرأة بالابتعاد عن الحياة وابقائها أسيرة بيتها لا تعرف خارج حدوده شيئاً ، ابقاها في غربة انسانية قاتلة ، وعمل على تجهيلها وتخلفها رهينة لرغبات الرجل ونزواته وتسلطه ، مبرراً ذلك بعقلها الناقص الذي خلقه هو عندما عزلها عن أهم الأسباب التي يمكن أن تحرك العقل الا وهي النشاطات المنتجة .

المرأة في ظل التشكيلة البرجوازية :

ان التطور الاجتماعي اللاحق وانتقال المجتمع من تشكيلة الى أخرى ، افضى الى حد كبير زيف الأضاليل والأكاذيب التي روج لها المجتمع القديم ، حول القدرات العقلية المحدودة للمرأة ، فلدى قيام الثورة البرجوازية في أوروبا ، تكشفت كل حقيقة هذه المفاهيم عندماباتت المرأة اولى خطواتها الرائعة من أجل الانعتاق من اسار العبودية والجهل والتخلف ، وذلك عندما فسح الواقع الجديد لها المجال ، للانخراط الجدي والفعلي في الحياة العامة من خلال العمل المنتج ، فنمو الصناعة ورأس المال الذي رافقه تطوّر هائل في مضمار العلوم الطبيعية والاجتماعية كان له الفضل الأول في تفتيت الأسس المادية والايديولوجية للمجتمع الاقطاعي ، فأزيحت عن البشرية قيود الجهل والتخلف ، ودخلت الانسانية مرحلة ارقى وأرفع من مراحل تطورها ، تقوم على العلم والعمل المنتج ، وانعكس كل هذا التغيير بالطبع على حياة المرأة واوضاعها الاجتماعية ، فتركت سجنها واتجهت الى العمل لدى البرجوازية الصاعدة التي كانت في أمس الحاجة لليد العاملة وانجزت بذلك الكثير من المكاسب أهمها : انها اصبحت عضواً منتجاً وفاعلاً وليس كما معزولاً ، وتحددت سلطة الرجل المطلقة عليها ، والتي كان العامل المادي يلعب فيها دوراً رئيسياً . فأصبحت المرأة العاملة ، والمرأة العالمة والمفكرة والمكتشفة لا بل وتزاحم الرجل

في عملية التطور على مختلف الاصعدة والمستويات ، فمدام كوري هي التي اكتشفت عنصراً هاماً وفعالاً في الطبيعة ـ اليورانيوم ـ وبرزت ايضاً هيلين كيلر وكثيرات غيرهما .

واقع المرأة في البلدان العربية

ان مثل هذا التطور الذي حققته المرأة في اوروبا الذي جاء كنتيجة منطقية للثورة البرجوازية لم يجر في بلادنا على هذا النحو ، لأن مثل هذه الظروف لم تتوفر في بلادنا ، فالثورة البرجوازية عندنا لم تنجز حتى نهاياتها الطبيعية ، حتى نرى مثل هذه الصور المشرقة ، فلا تزال الكثير من المفاهيم المتخلفة تلف بقيودها المسار الطبيعي لتطور المرأة وتحررها ، وتظل لنا برأسها يومياً لتكبح وتحد من تطلعاتها وتمنعها من ممارسة حقوقها الاجتماعية والانسانية التي تليق بالمجتمع الانساني المتحضّر ، فانخراطها في الحياة العامة ولا سيما العمل المنتج ، ضعيف ومتدن . صحيح ان هناك تقدماً نلمسه يوماً بعد يوم ، ولكنه بطيء ومحدود ومحصور في مجالات معينة كالتعليم والوظيفة بينما تقل النسبة داخل الطبقة العاملة المنتجة ، أو مجالات البحث العلمي المتخصص والصورة بالطبع ليست واحدة ، فمستوى تخلف المرأة او تقدمها تزيد أو تقل حسب درجة التطور الاقتصادي والاجتماعي والظروف التاريخية الخاصة لهذا البلد أو ذاك . فالمرأة في لبنان مثلاً من حيث درجة انفتاحها على المجتمع ووعيها وثقافتها ليست كالمرأة في المملكة السعودية وهذا يرجع بالتأكيد الى الظروف التاريخية المختلفة لتكون العملية الاجتماعية وقوانينها فالمرأة في السعودية مثلاً لا تزال تعاني ، بالرغم من الرفاه الخارجي ، مشاكل انسانية عديدة ومتنوعة ، إذ لا تزال تحكمها عقلية القرون الوسطى المغلفة بالدين والأساطير ، فهي شبه معزولة عن الحياة العامة ، فعداك عن اللباس الذي لا تظهر منه أحياناً عيناها أو يداها ، فهي لا تحتك بالرجل بتاتاً ، فالجامعة تقسم الى قسمين أو قل ان هناك جامعات خاصة بالاناث وأخرى للذكور ، وهي لا ترى الاستاذ الجامعي الذي يحاضر فيها إلا على الشاشة ، وما قصة «موت اميرة» التي قتلت ـ رغم انها من العائلة المالكة ـ بسبب اختيارها الحر لزوجها . والذي أثار فضيحة كبيرة اسهمت في تدهور العلاقات بين الحكومتين السعودية والبريطانية لعرضها مثل هذا الفلم ـ إلا دليلاً قاطعاً على الوحشية واللاانسانية التي لا تزال تمارس على المرأة ـ وهي بالتأكيد تشكّل وصمة على جبين البشرية وخصوصاً عندما نقرأ الصورة المعاكسة والخفية لهذه العادات والتقاليد ، التي تتجلى في صورة هذا الرجل الذي يحكم بالموت لاختيار مشروع ، بينما يبيح لنفسه ممارسة أبشع وأحط الفضائح ، فلا قيد عليه ، ولا تمنعه العادات والتقاليد إياها من أن يتزوج من أربع وان يمتلك من الجواري والحسان ما يطيب له بحجة «ما ملكت ايمانكم» !! . . ولا تمنعه بالمقابل من اهدار الثروات الوطنية على مسراته في بلاد الغرب ، ولا تمنعه ـ عندما يكون في أحد المجالس الاجتماعية ويأتون على سيرة المرأة ـ من قول كلمة (حيثي السامعين) كأنه يذكر شيئاً قذراً !! . .

دور المرأة في النضال الثوري

ان واقعاً كهذا لا يمكن تغييره بين ليلة وضحاها ، وانما بفعل صيرورة تأريخية تزيل كل اسس التخلف الاجتماعي المادية والفكرية والاخلاقية البائدة ، انها مهمة القوى الثورية العربية التي يقع على عاتقها انجاز واستكمال مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية والتي كما نراها اليوم لا تأخذ على عاتقها بصورة جدية القيام بالمهام المسندة لها . الا أن المستقبل أمامها ، وهي وحدها وليس غيرها الذي عليه ان يقوم بمثل هذا الدور ، ومشاركة المرأة بهذه المهام ستكون كبيرة دون أدنى شك ، ولها من الطاقات والقدرات ما يؤهلها اذا وجدت الاهتمام الكافي ان تعطي الكثير ، فهي ليست أقل قدرة وكفاءة من المرأة السوفياتية أو الصينية أو الفيتنامية ، والقضية تتعلق هنا بمستوى نهوض القوى الثورية . فالحزب الشيوعي السوفييتي ادرك هذه المسألة واولاها الاهتمام الضروري في برنامجه ابان مرحلتي النضال الديمقراطي والاشتراكي ، تحت شعار انعتاق وحرية الطبقة العاملة والاطاحة بسلطة القيصر عام ١٩١٧ ، لذا كانت مشاركة المرأة في الثورة عظيمة وخلاقة ، فكانت المقاتلة والسياسية والمنظرة ، والكسندرا كولونتاي صورة ساطعة لتلك المرأة المكافحة ، التي تخصصت في الكتابة حول موضوعات الثورة وعلى رأسها تحرر المرأة العاملة ، وروزا لوكسمبورغ التي تخصصت في الدراسات الاقتصادية فكتبت «تراكم رأس المال» الذي يعد من خيرة الكتب الاقتصادية ، تناولت فيه اسس البناء الاقتصادي للبرجوازية اضافة الى كونها احدى المناضلات الطليعيات في صفوف الحركة الشيوعية الالمانية في عقد العشرينات من هذا القرن .

أما نموذج الثورة الصينية ومستوى انخراط المرأة في النضال ضد الاستعمار الياباني فهي الأخرى لها مغزاها الكبير في أهمية هذا العنصر وفعاليته الاجتماعية والسياسية والذي اعترف به ماوتسي تونغ نفسه ، حيث قاتلت المرأة جنباً الى جنب مع الرجل وبكفاءة عالية الى ان تحررت الصين من الاستعمار ونالت حريتها واستقلالها . وقس على ذلك دور المرأة الفيتنامية وابداعاتها في المواجهة النضالية للاستعمار الامريكي .

ان مثل هذه الصور والنماذج لا تفتقدها بلداننا العربية بالطبع ـ الا انها ليست بنفس آلية العمق والشمول تلك ، فعلى الرغم من تخلف واقعنا إلا أننا نجد تصاعد نضالات المرأة في وقت الازمات الوطنية ، . ومن النماذج العديدة في هذا المجال والتي تدعو للتأمل والعمل الجدي من أجل تطويرها واستمرارها ـ جميلة بو حريد ـ المناضلة الجزائرية المعروفة ـ صورة نجردها من التاريخ العربي المعاصر كنموذج للمرأة العربية المناضلة . والتي لا تزال ماثلة في الأذهان تجرعت مرارة السجون والتعذيب الوحشي على يد الاستعمار الفرنسي من أجل أن تحيا الجزائر وتنتصر ، ونموذج المرأة السودانية ونضالها ضد سلطة غيري هي الأخرى صورة مشرقة وتعطينا دفعاً كبيراً لمتابعة المسيرة ، إلا أن مثل هذه القضية تبقى في النهاية وثيقة الارتباط بمستوى تطور الحركة الثورية ومستوى ما تحرزه من انجازات ثورية حقيقية على أرض الواقع ، كجزء من قضية اعمق وأشمل ألا وهي ارادة الشعوب المضطهدة ونضالها من اجل ازالة كل عوامل الاستغلال والقهر الطبقي .

المرأة الفلسطينية : الواقع الراهن والآفاق

ان عوامل التشرد والنكبة التي عاشها الشعب الفلسطيني وظروفه الخاصة في النضال ، جعلت موضوع المرأة يختلف عن الصور السابقة بحيث تبدو هنا أكثر اشراقاً . فالواقع ، واقع التشتت ساهم الى حد كبير في التوجه نحو العلم ، والمستوى العلمي والثقافي انعكس على الأوضاع الاجتماعية للمرأة بشكل ايجابي ، فنالت قسطاً لا بأس به من التعليم والثقافة ودخلت ميدان العمل ، اضف الى ذلك ان انطلاقة الثورة الفلسطينية في ١٩٦٥ والواقع النضالي الجديد الذي أفرزته ساهم الى حد بعيد في انخراط المرأة في العمل السياسي والاجتماعي ، وساهم في انفتاحها على الحياة وصقل شخصيتها ، فدخلت المرأة الفلسطينية الى مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية كمقاتلة وسياسية ، شاركت الرجل في شتى مجالات النضال من أجل القضية ، سواء كمناضلة في العمل السياسي او العسكري واظهرت براعة وقدرة هائلة على المواجهة والتحمل والصمود في وجه المعتدي الصهيوني ، ولنا أن نذكر في هذا الصدد لينا النابلسي التي استشهدت برصاص العدو الصهيوني وهي ترفع علم فلسطين فوق الأرض العربي ، والشهيدة تغريد البطمه ، وليلى خالد واميمة دحبور ورسمية عوده ، وغيرهن من الأعلام النسائية المناضلة اللواتي برزن داخل حركة النضال الفلسطيني والنماذج كثيرة ومتعددة منها فاطمة برناوي المرأة المقاتلة التي سجنت